

تفسير ابن كثير

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ^ج إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ^ج إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

يقول تعالى مخبرا للناس أنه خلقهم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ، وهما آدم وحواء ، وجعلهم شعوبا ، وهي أعم من القبائل ، وبعد القبائل مراتب آخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك . وقيل : المراد بالشعوب بطون العجم ، وبالقبائل بطون العرب ، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل . وقد لخصت هذا في مقدمة مفردة جمعتها من كتاب : " الإنباه " لأبي عمر بن عبد البر ، ومن كتاب " القصد والأمم ، في معرفة أنساب العرب والعجم " . فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمر الدينية ، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ؛ ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضا ، منها على تساويهم في البشرية : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) أي : ليحصل التعارف بينهم ، كل يرجع إلى قبيلته . وقال مجاهد في قوله : (لتعارفوا) ، كما

يقال : فلان بن فلان من كذا وكذا ، أي : من قبيلة كذا وكذا . وقال سفيان الثوري :

كانت حمير ينتسبون إلى مخاليفها ، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها . وقد قال

أبو عيسى الترمذي : حدثنا أحمد بن محمد ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن عبد الملك

بن عيسى الثقفي ، عن يزيد - مولى المنبث - عن أبي هريرة ، عن النبي - صلى الله عليه

وسلم - قال : " تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ; فإن صلة الرحم محبة في الأهل

، مشاة في المال ، منسأة في الأثر " . ثم قال : غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وقوله

: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أي : إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب .

وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : قال البخاري رحمه

الله : حدثنا محمد بن سلام ، حدثنا عبدة ، عن عبيد الله ، عن سعيد بن أبي سعيد ، عن

أبي هريرة قال : سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أي الناس أكرم ؟ قال : "

أكرمهم عند الله أتقاهم " قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : " فأكرم الناس يوسف نبي

الله ، ابن نبي الله ، ابن خليل الله " . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : " فعن معادن

العرب تسألوني ؟ " قالوا : نعم . قال : " فخيركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا

فقهوا " .وقد رواه البخاري في غير موضع من طرق عن عبدة بن سليمان . ورواه النسائي في التفسير من حديث عبيد الله - وهو ابن عمر العمري - به .حديث آخر : قال مسلم ، رحمه الله : حدثنا عمرو الناقد ، حدثنا كثير بن هشام ، حدثنا جعفر بن برقان ، عن يزيد بن الأصم ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " .ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سنان ، عن كثير بن هشام ، به .حديث آخر : وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن أبي هلال ، عن بكر ، عن أبي ذر قال : إن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال له : " انظر ، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى . تفرد به أحمد .حديث آخر : وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا أبو عبيدة عبد الوارث بن إبراهيم العسكري ، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة ، حدثنا عبيد بن حنين الطائي ، سمعت محمد بن حبيب بن خراش المصري ، يحدث عن أبيه : أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : المسلمون إخوة ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى " .حديث آخر : قال أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا أحمد بن يحيى الكوفي ، حدثنا الحسن بن الحسين ،

حدثنا قيس - يعني ابن الربيع - عن شبيب بن غرقدة ، عن المستظل بن حصين ، عن
حذيفة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " كلكم بنو آدم . وآدم خلق من
تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان " . ثم قال :
لا نعرفه عن حذيفة إلا من هذا الوجه . حديث آخر : قال ابن أبي حاتم : حدثنا الربيع بن
سليمان ، حدثنا أسد بن موسى ، حدثنا يحيى بن زكريا القطان ، حدثنا موسى بن عبيدة ،
عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : طاف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم
فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده ، فما وجد لها مناخا في
المسجد حتى نزل - صلى الله عليه وسلم - على أيدي الرجال ، فخرج بها إلى بطن
المسيل فأنىخت . ثم إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطبهم على راحلته ، فحمد
الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : " يا أيها الناس ، إن الله قد أذهب عنكم عبية
الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل يرتقي كريم على الله ، وفاجر شقي
هين على الله . إن الله يقول : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم
شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) ثم قال : " أقول

قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم " .هكذا رواه عبد بن حميد ، عن أبي عاصم الضحاك
بن مخلد ، عن موسى بن عبيدة ، به .حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن
إسحاق ، حدثنا ابن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد ، عن علي بن رباح ، عن عقبة بن عامر
؛ أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد ،
كلكم بنو آدم طف الصاع لم يملأه ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى ،
وكفى بالرجل أن يكون بذيا بخيلا فاحشا " .وقد رواه ابن جرير ، عن يونس ، عن ابن وهب
، عن ابن لهيعة ، به ولفظه : " الناس لآدم وحواء ، طف الصاع لم يملئوه ، إن الله لا
يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم " .وليس
هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه .حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا أحمد
بن عبد الملك ، حدثنا شريك ، عن سماك ، عن عبد الله بن عميرة زوج درة ابنة أبي لهب
، عن درة بنت أبي لهب قالت : قام رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو على
المنبر ، فقال : يا رسول الله ، أي الناس خير ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - : " خير
الناس أقرؤهم ، وأتقاهم الله عز وجل ، وأمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر ،

وأوصلهم للرحم " .حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ،

حدثنا أبو الأسود ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة قالت : ما أعجب رسول الله -

صلى الله عليه وسلم - شيء من الدنيا ، ولا أعجبه أحد قط ، إلا ذوتقى . تفرد به أحمد

رحمه الله .وقوله : (إن الله عليم خبير) أي : عليم بكم ، خبير بأموركم ، فيهدي من

يشاء ، ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ، ويعذب من يشاء ، ويفضل من يشاء على من

يشاء ، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله . وقد استدل بهذه الآية الكريمة وهذه

الأحاديث الشريفة ، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط ، ولا

يشترط سوى الدين ، لقوله : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وذهب الآخرون إلى أدلة

أخرى مذكورة في كتب الفقه ، وقد ذكرنا طرفا من ذلك في " كتاب الأحكام " والله

الحمد والمنة . وقد روى الطبراني عن عبد الرحمن أنه سمع رجلا من بني هاشم يقول :

أنا أولى الناس برسول الله . فقال : غيرك أولى به منك ، ولك منه نسبه .